

الوطن

في شعري ابي فراس الحمداني وحازم القرطاجني

- دراسة موازنة -

د. ياسر علي عبد
كلية الآداب / جامعة القادسية

الخلاصة :

البحث فضاء لرؤية صورة الوطن ، ومدى تعلق الإنسان به ، وحنينه إليه ، عند شاعرين من شعراء العربية هما أبو فراس الحمداني (ت ٣٥٧ هـ) وحازم قرطاجني (ت ٦٨٤ هـ) . تناول البحث صورة الوطن على وفق تعلق الإنسان به والإحساس بالضياع بالابتعاد عنه ، فضلا عن مرارة الذل والهوان التي تلحق المغترب عن وطنه . وذلك على وفق دراسة أدبية موازنة بين الشاعرين .

المقدمة:

الوطن: البقعة من الأرض التي يعيش عليها أناس معينون ، تربطهم روابط مشتركة. ووطن الإنسان مسقط رأسه، ومكان سكن أهله وأحبائه ، سواء خيمة كان أم منزلاً . إنه المكان الذي أمضى فيه المرء طفولته . حتى الفته نفسه فصار كأنه جسداً لها . إنّ محبة الأوطان كبيرة لدرجة أنها لا يمكن أن توصف ، وتزداد هذه المحبة كلما ابتعد الإنسان عن وطنه ، لأنها تذكره بمأرب قضاها في مراع ذلك الوطن . وعلى وفق ما تقدم كان هذا البحث مجالاً لرؤية قيمة الوطن ، ومدى تعلق الإنسان به ، وحنينه إليه ، وذلك بعده . عند شاعرين من شعراء العربية هما أبو فراس الحمداني (ت ٣٥٧ هـ) وحازم القرطاجني (ت ٦٨٤ هـ) .

إنّ أسر الحمداني عند الروم ، وكتابته العديد من قصائد الحنين والتعلق ببلاد الشام . والهجرة القسرية لحازم القرطاجني إلى بلاد المغرب ، بعد اجتياح النصارى لوطنه الأندلس ، كلّ ذلك كان باعثاً لكتابة هذا البحث أملاً في الاطلاع على صورة الوطن عند كليهما ، والموازنة بعد ذلك بين الصورتين للوقوف على أسباب التشابه والاختلاف بينهما.

لقد اعتمد البحث على شعر أبي فراس في ديوانه المطبوع ، بتحقيق د. سامي الدّهان . في حين أخذ من شعر حازم القرطاجني مقصورته فقط. لأن ديوانه المطبوع بتحقيق عثمان الكعّك خلا من تلك المقصورة التي حوت أغلب ما قاله في الوطن والحنين إليه. لذا كانت مقصورة حازم المؤلفة من ١٠٠٠ بيت والمعروفة باسم: رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة وهي جزءان. شرح أبي القاسم محمد بن أحمد الغرناطي. هي النافذة الوحيدة لمعرفة صورة الوطن في ذات الشاعر.

وارتأى الباحث أن يكون توثيق الأبيات من المقصورة بحسب أرقام الأبيات حفاظاً على الوجه التاريخي والتراثي لها كونها لم تحقق لحد الآن وبحسب علمي.

تعددت المنافذ التي نفذ الشعراء من خلالها، لرسم أجمل الصور وأكثرها بهاءً لأوطانهم، لاسيما في الأوقات التي يُبعدون عنها وعن التمتع بمناظرها الخلابة.

إنّ الإقصاء القسري الذي تعرض له بعض الشعراء ، زاد من حرقه قلوبهم ، وشدة اللوعة في نفوسهم ، إذ أفضى ذلك إلى زيادة حلاوة الوطن في عيونهم ، فدفعهم هذا للتعبير عن نواتهم بمختلف السبل ، وكلّ بحسب التكوين النفسي لذاته . فمرة تهيج الذكريات الجميلة بداخله أشجاناً فيتمصص أجملها ،

وأَنْفَسَهَا لَدَيْهِ لِيُظْهِرَ مِنْ خِلَالِهَا صُورَ شَوْقِهِ ، وَلَوْعَتَهُ لَدُنْكَ الْمَكَانَ ، وَمَرَّةً يَجْعَلُ وَطَنَهُ بَيْنَ أَوْطَانِ الدُّنْيَا لِيُبَاهِيَ بِهِ النَّاسَ إِذْ أَنَّهُ الْأَجْمَلُ وَالْأَحْسَنُ. وَأُخْرَى يُظْهِرُ ذَلِكَ وَهُوَ أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ أُبْعِدَ عَنْهُ وَنَفِي. وبناء على ما تقدم ستكون هذه المحاور وغيرها مجالاً للموازنة بين شعر أبي فراس في بلاد الروم وبين مقصورة حازم القرطاجني التي قالها في تونس بعيداً عن مرابع وطنه. فأبو فراس الحمداني تطلع من وراء قضبان الأسر ووحشته إلى موطنه ومكان عزه فعبر في أغلب روميته عن حبه وتشوقه للعودة إليه والولاء له . إذ مثل شعره ذلك خير تمثيل ، فوظف كلَّ السبل التي لها القابلية للتعبير عن ذلك الشوق ، وتلك الحرقه التي أفضت مضاجعه .

١- باب التعلق:

ففي هذا الباب نلمح مدى تعلق الشاعر بوطنه ، واللهفة العارمة التي تكتنفه إذ يقول^(١) :

إذا مررت بوادٍ جاش غاربه فاعقل قلوصلك وانزل ذاك واديننا
وإن عبرت بنا دٍ لا يطوف به أهل السفاهة فاجلس ذاك نادينا

فلشدة تعلق الشاعر بوطنه حاول أن يضيف عليه أبهى الفضائل وأسمائها ، فأرض أهله سميتها الكرم لذا رسم لنا صورة رائعة لمنظر طالما تمناه العربي لنفسه ، وهو في مجاهل الجزيرة العربية. فالإبل في بلاد الحمدانيين ترعى وقد لفَّ حبلها على غاربها ، والغارب هو ما بين الرأس والسنام، وهنا تعبير عن تلاشي حدود الرعي ، والشاعر رسم هذه الصورة كناية عن شجاعة قومه وكرمهم ، إذ أن الشجاعة والكرم سمتان متحدتان ، فالشجاع كريم دائماً لأن من يجود بنفسه لا يمكن أن يبخل بالمال^(٢). ولم يقتصر خيال الشاعر على هذه الصورة، بل راح يربط ذلك كله برجاحة عقول الرجال من أهله فليس فيهم السفية، وذلك كله صار علامات مميزة لوطنه وأهله. ولم يكن الأسر وهوانه ليثني عزيمة أبي فراس ، إذ أخذت نفسه تتطلع لوطنه أملاً في وضع روحه قرباناً لذلك الوطن فهو يقول^(٣):

وهل ينفع الخطي غير مثقف؟ وتظهر إلا بالصقال الجواهر؟
أناضل عن أحساب قومي بفضله وأفخر حتى لا أرى من يفاخرُ

ولم يقتصر تعلق الشاعر بوطنه على التفاخر به وفدائه ، وإنما أخذت الذكريات مأخذها منه حتى صارت نافذة يطلُّ من خلالها على مرابع ذلك الوطن وأماكن الصفاء فيه ((فترية الصبا تغرس في القلب حرمة وحلاوة كما تغرس الولادة في القلب رقة وحلاوة))^(٤). ولذا نراه يقول^(٥):

قف في رسوم المُستجا ب وحي أكناف المُصلى
فالجوسق الميمون فالس قيا بها، فالنهر أعلى
تلك المنازل والملا عبُ لا أراها الله محلا
أوطنتها زمن الصبا وجعلت منبج لي محلاً
حيث التفت رأيت ما ء سابحاً ووجدت ظللاً
ترى وادي عين قا صر منزلاً رحباً، مطلاً
وتحل بالجرس الجنا ن وتسكن الحصن المعلى

إنها آهات سجين أسير يحنُّ إلى ملاعب الصبا إلى منزله في منبج، إلى أيامه الجميلة الصافية فيقول: قف في رسوم المستجاب، آثار هذا الموضع وعلائمه، وسلم على جوانب المصلى وزواياه،

والجوسق المبارك، فالسقى ثم النهر، أعلى هذه المواضع الحبيبية، التي أرجو الله أن يجعلها دائمة الخضرة، فهي موطني الحبيب وملاعب صباي، وطفولتي، ومنبج هي داري ومحلي، فشوقي مستمر دائم لكل هذه المواضع العزيزة من بلادي لأنها هي بلادي. من هنا جاءت روميته مطبوعة بالغربة الحقيقية والصدق العاطفي والشوق للوطن ولمجده، والشوق لإمارته ومدينته، فكانت تلك الروميات ملونة بهذه المرارة الخصبة والشوق الزائد^(٦). أما حازم القرطاجني. فمتعلق بوطنه بطريقة تناسبت ومكونات شخصيته وميولها. إذ تطلع إليه بكل حواسه، مظهراً رغبته العميقة في الاطلاع على أخباره والاستماع لكل ما يتصل به من أنباء فهو يقول:^(٧)

إملاً سمعي ويدي من كل ما تهواه نفسي من غناءٍ وغنى

وهنا نلمح اللفظة العارمة في نفسه لمعرفة أخبار وطنه بعد أن أبعد عنه، إذ استغنى عن كلمة الوطن بكلمة الغناء والغنى، التي تُشير بوضوح إلى بلاد الأندلس المعروفة بطبيعتها الخلابة وشهرتها بالغناء، والأزهار، وهو بذلك أشار إلى قيمة البلاد دون أن يغور بالتفاصيل، فكانت الطبيعة الأندلسية الساحرة منفذاً واسعاً عبر من خلاله عن حبه لوطنه وحنينه إليه. إذ تظهر النزعة الذاتية واضحة في موقف الشعراء من مظاهر الطبيعة، يشخصونها ويجعلونها تشاركهم مشاعرهم مشاركة وجدانية عميقة يندمج معها بمشاعره وأحاسيسه^(٨) من ذلك قوله في وصف طبيعة الأندلس^(٩).

قد ارتدى البنفسج النضر بها	من زرقة الجو الصريح ما ارتدى
وملاً السوسن بالتبر يداً	وفتح الأ نمل من فرط السخا
ومنح الوردُ النسيم عرفه	منح الجوادِ عرفه من اجتدى
ولم يجد لجوده شقيقة	فاظهر الخجلة منه واستحى
وأظهر الخيري صدق نسبة	لما انتمى للخير فيها واعترى
وصرح التمام عما نم من	أسراره تحت الدجى وما كنا
وحدق النرجسُ فيه حدقا	فراق منه الطرف طرف قد سجا

وهنا نلمح محاولة الشاعر تكوين صورة متحركة ذات طبيعة أكثر حيوية، وأكثر تأثيراً لذا فإنه أطنب في هذا الوصف، لينقل تلك الصورة من طبيعتها إلى ذهن المتلقي ليشاركه الاحساس بجمالها، بعد أن يدركها بحواسه البصرية والشمية. ويبدو أن هنالك هدفاً من وراء هذه السعة في الوصف، انها نافذة لإظهار ما في نفسه من حنين وشوق إلى بلاده، إذ أراد بذلك تفاعل المتلقي معه ليطلع على ما في نفسه من لهفة عارمة وشوق لذلك الوطن الجميل.

وبعد كل ما تقدم فالشاعران متعلقان بوطنيهما إلى حدّ العشق، إلا أنّ التمايز بينهما يعود إلى البناء الشخصي كلّ منهما. فأبو فراس سيطرت عليه النزعة الحربية، والحماسة المفرطة في اغلب قصائده حتى تلك التي بدا عليها طابع الغزل. إذ أنّ الشاعر - في الغالب - أسير حماسته المتأججة التي كانت مسيطرة عليه، فلم يستطع أن يتحرر من آثارها في كل أغراضه الشعرية^(١٠). لذا جاءت أشعاره التي بدا فيها متعلقاً بوطنه مصبوغة بصبغة الحماسة حتى في تلك التي يذكر فيها أيام صباه وملاعب فتوته، إذ قرنهما بمنبج التي تعد أكثر المناطق الحمدانية حرباً وأكثرها خطراً كونها تحدّ بلاد الروم، وفيها وعلى حدودها كانت معاركه.

أما حازم القرطاجني، فلم يعرف الحرب أبداً فهو من أسرة معروفة ببلاد الأندلس، كان والده قاضياً في مدينته، وكانت حياته تميل إلى الرفاهية والسعة من العيش، ولربّما كان هذا سبباً دفعه إلى اتخاذ الطبيعة وفي اغلب قصائده منفذاً للتغني بوطنه، إذ لم تفارق تلك الطبيعة مخيلته

حتى وفاته في تونس سنة ٦٨٤ هـ إذ أنها طبيعة خلابة مثلت سحر الدنيا انذاك بخلاف طبيعة بيئة ابي فراس إذ كانت جبلية صحراوية في بلاد الشام مما كان ذلك اثراً فاعلا في تكوين شخصيته إذ المعروف ان الشاعر ابن بيته .

٢- الإحساس بالضياع بعد الوطن والحنين إليه.

إن ارتباط الإنسان بالأرض كارتباط النبات بها. فالأرض التي ولد عليها الإنسان ونشأ وترعرع تشده إليها دوماً، مهما تطورت مفاهيمه عن الوطن: ومهما حاول الاغتراب. والتنقل والترحال. فأبو فراس الحمداني الأمير والفارس في وطنه عانى الضياع وذاق مرارة الغربة، في بلاد الروم ولذا راح يعبر عن ذلك الضياع وعن تلك الغربة بوسائل شتى، فمرة يطالعنا بتحسره لفقدانه المكانة الاجتماعية المرموقة التي كان يتمتع بها في وطنه ، إذ سرعان ما تقوم في خاطره -وهو في بلاد الغربة- موازنة سريعة بين حاضره وماضيه^(١١) فيقول^(١٢) .

فقد الضيوف مكانه وبكاه ابناء السبيل

لقد خمدت ناره بعد إن كانت مستعرة يقصدها القاصي والداني، فالكرم من السجايا التي تباهى بها الشاعر، واحتلت من نفسه المكانة المرموقة، فلها الحظ الأوفر من شعره. ولذا فانه عبر هنا عن تلك الذات المكلمة التي شغلت حيزاً كبيراً من حياه الحمدانيين. وعلى الرغم من أن الحمدانيين كلهم فارس شجاع^(١٣) ، فإن الشاعر طالعنا بأبيات تحمل في طياتها شكوى الجياد لفقد فارسها يوم الوغى، وكأما قومه قد كفوا عن القتال بسبب أسره. فهو يقول^(١٤):

واستوحشت لفراقه يوم الوغى، سرب الخيول
وتعطلت سمر الرما ح ، وأعمدت بيض النصول

ان حنينه في الابيات السابقة كان الى الماضي لان الماضي - في اسره - مثل له الوطن بكل معانيه ، ولذا فإن هاجس الخوف والالام الذي بدا عليه لم يكن حرصاً على قومه ، وانما على ذاته المنكسرة التي فارقت ملاعب عزها ، فأصابها شيء من الإحباط والخوف من المصير المجهول . وظلت الحسرة تعصره حتى أفقدته الصبر فتنازل قليلاً عن كبريائه ليبيكي ذلك الفردوس المفقود، إذ يقول^(١٥) :

دع العبرات تنهمر انهماراً ونار الوجد تستعر استعاراً
أطفأ حسرتي وتقر عيني ولم أوقد مع الغازين ناراً ؟
رأيت الصبر أبعد ما يرجى إذا ما الجيش بالغازين سارا

ولم ينس أبو فراس أن يجعلنا نشارك لحظة الزهو والنشوة المفقودة، وكأنه حاول خلق حالة من الموازنة بين الماضي والحاضر. إذ أن ((للماضي نكهة خاصة عند الإنسان لاسيما ذلك الذي أثقلت أحزان الحاضر كاهله، واخذ الاغتراب بخناقته، فالماضي على وفق هذا التصوير مرفأ يرتاده الشاعر فراراً من الألم، والتماساً للراحة وان كانت في الحلم والخيال))^(١٦) . فهو يقول^(١٧) :

وكان إذا دعانا الأمر حقت بنا الفتيان تبتدر ابتداراً

وهنا عرض لموكب الإمارة والقيادة التي تمتع بها الأمير الفارس في وطنه، إذ اتخذ معادلاً موضوعياً لذل الأسر وهوانه، فضلاً عن محاولته زرع الصبر في نفسه بعد أن فقدته شيئاً فشيئاً ، وذلك بالا تكاء على الماضي الجميل والتطلع إلى فكاه أسره من خلال تذكير ابناء قومه بمواقفه العظيمة تجاههم.

إن طول مدة السجن على الشاعر، وبعده عن وطنه كل ذلك زرع في نفسه الالهفة والشوق إلى بلاده، فروحه الشاعرة ، وعنفوان الفارس جعلاه لا يطيق الأسر، ويتحرق شوقاً إلى مرابعه فهو يقول^(١٨):

واسر أفاسيه وليل نجومه
تطول بي الساعات وهي قصيرة

أرى كل شيء غيرهن يزول
وفي كل دهر لايسرك طول

أما حازم القرطاجني فعلى الرغم من امتلاكه لحريته وتمتعه بشيء من الرفاهية في بلاد الغربة فإن إحساسه بالضيق كان هاجسا يورقه طوال حياته التي قضاها بعيدا عن بلاده، إذ أن بعض الشعراء ((عاف كل شيء : الحياة المترفة، والتقدير والمكانة الاجتماعية، وحاول جاهدا العودة إلى الوطن))^(١٩). يتمثل ذلك بالشعور الحاد بافئاد الوطن، والحيرة الشديدة، وهو شعور ناتج عن اصطدام بالواقع المأساوي ، مما يضطره العودة إلى الماضي، فيطالعا بالكثير من الأبيات التي تحكي حاله وقد فارق حاضره، وعاش في الخيال ، إذ تنور في نفسه الجراح وألوان العذاب ، وتلح على باله فكرة الوطن الضائع فتمزق نفسه . فيقول: (٢٠)

أين الزمان الناضر الطلق الذي كم قرّ فيه ناظري بما رأى

فالألم والتحسر يظهران من خلال أداة الاستفهام (أين) التي نعتقد أنها صادرة من أعماق نفسه لتحكي لنا حال ذاته وقد خفت على الناظرين ، إذ فيها الشوق واللوعة ، والألم والتطلع إلى رؤية الوطن من جديد على الرغم من عيش الشاعر الرغيد في كنف الملوك كما أسلفنا سابقاً. ولذا اخذ الزمن السعيد المنقضي يلح على الشاعر فيثير في نفسه الهم والكمد والإحزان ، وكأننا أمام حالة من المقارنة بين الماضي والحاضر. فهو يقول(٢١) :

فالدهر عيدٌ والليالي عرس
والعيش أحلام كأحلام الكرى

إنّ هذه اللوعة الشديدة لغياب الوطن دفعت الشاعر لتعداد أطوار الماضي ليذكر المواطن بأسمائها، وذلك تسلياً للنفس الحائرة التي فقدت النعيم بفقدانها الوطن. فأنت إذا تذكرت تجارب الماضي السارة قد تنسى حاضرك المؤلم، وتعيش ماضيك وتنغمس فيه انغماساً تشعر معه بالغبطة والسرور^(٢٢). ولذا نراه يقول(٢٣):

وكم لنا بالزنقات وقفة
حيث استدار النهر ما وانحنى

وقوله(٢٤):

وكم تنعمت بروض تجتني
أزهارها من لفظ خلّ يجتني

وتظل لفظة (كم) الخيرية التعجبية تتكرر في شعر الشاعر بشكل يستوقف القارئ ليطلع من خلالها على نعيم الماضي في الوطن، ومرارة الغربة بعيداً عنه. إذ يظهر الارتباط بالأرض والوطن مقروناً بالمعيشة الحسنة^(١٥).

نخلص ممّا تقدم إلى أنّ أبا فراس ، والقرطاجني أحسّ الضياع حينما كانا بعيدين عن وطنيهما ، إحساساً دفعهما إلى الحنين ، والرغبة الشديدة في العودة إليه، لينعما بالعزّ والكرامة في ظلّه على أنّ كلا منهما عبّر عن ذلك الإحساس بطريقة تتناسب، والصفات التي يراها جزءاً من ذاته. فأبو فراس المحارب الشجاع أحسّ بضياع وطنه حينما فقد القعاليات القريبة من نفسه التي مارسها في ذلك الوطن، وكان الوطن عنده الكرم والحرب وإغاثة الملهوف.

في حين إنّ الشاعرية الغالبة على حازم القرطاجني والحس المرهف الذي تمتع به، فضلاً عن الثراء الجمالي الذي حصل عليه بفضل طبيعة الأندلس الساحرة. كل ذلك جعل من البساتين والأنهار. ومظاهر الطبيعة في بلاد الأندلس الوطن المفقود، إذ لم يكن لديه حيزاً يستوعب تلك الذات الغريبة. على إنّنا لا ننسى أنّ أبا فراس اتخذ من مكان وطنه معادلاً موضوعياً لإحساسه بالضياع. إلا أنّ الفارق بينهما أنّ تلك الأماكن عند أبي فراس تمثلت بمنج حصرأ، وليست أماكن الطفولة والمرح ، وهذا يعني تذكره لأيام الفروسية وساحات الحرب لأن منج معروفة بعدم استقرارها كونها ثغراً يطل على بلاد الروم، وهي في الوقت ذاته حلبة صراع بين الحمدانيين من جهة والقبائل المتمردة على حكمهم من جهة ثانية.

٣- الشعور بالذل والاستسلام:-

((قيل لبعض الحكماء: ما اللذة؟ قال: الكفاية مع لزوم الأوطان، ومحادثه الاخوان، قيل ما الذلة؟ قال: النزوح عن الأوطان، والتنقل بين البلدان.))^(٢٦) فبعيد الدار يبكي دائماً وطنه، إذ كلما طالت به المسافة طال به الشوق والوجد.

فأبو فراس الحمداني - على الرغم - من أن الروم أفردوا له قصراً يطلّ على البحر، ولقي منهم حسن المعاملة^(٢٧). فإن الإحساس بالوحشة، والغربة عن وطنه كلها صوراً شاخصة في شعره. منها قوله^(٢٨):

مصابي جليل والعزاء جميل	وظني بأن الله سوف يزيل
جراح تحاماها الأساءة مخافة	وسقمان بادٍ منهما ودخيل
وأسرّ أفاسيه وليل نجومه	أرى كل شيء غيرهن يزول
تطول بي الساعات وهي قصيرة	وفي كل دهر لا يسرك طول

إنه يقترب من الاعتراف باليأس، فمصابه يتمثل ببعده عن الوطن فقد بدا عليه ذلّ الأسر وهوان الغربة، إلا أن كبرياءه وعزّة نفسه، دفعاه للتماسك وعدم الاستسلام، ولذا أجهد نفسه في البحث عن مبررات البكاء فهو يقول^(٢٩):

دعوتك للجفن القريح المسهد	لدي وللنوم القليل المشرد
وما ذاك بخلاً بالحياة وإنها	لأول، مبدول لأول مجتدي
ولكنني اختار موت بني أبي	على سهوات الخيل غير موسد
وأبى وتأبى أن أموت موسداً بأيدي النصارى	موت اكد اكد أكيد

انه لا يريد أن يموت حتف انفه بعيداً عن وطنه، وأهله، وملاعب ذاته. وهو بهذه الأبيات حاول أن يوفق بين البؤس الذي يعانیه، والإلحاح بطلب الفدية^(٣٠). ولذا نجد أحواله قد تباينت في غربته بين القوة والضعف والجزع^(٣١).

إنّ هذه الأحوال دفعت الشاعر للبحث عن مرفأ معنوي يوفر له الطمأنينة، وهو في الآن ذاته دافع يحث من خلاله ابناء قومه للإسراع في دفع فديته، فما كان أمامه إلا شخصيته التي جعلها -ولسنيين طويلة - قرباناً لوطنه. فبعض الشعراء حاول تنبيه الملك على أن موته لن يكون خسارة مقصورة على نفسه، وإنما خسارة للوطن أيضاً^(٣٢). فهو يقول^(٣٣):

متى تخلف الأيام مثلي لكم فتى	طويل نجاد السيف رحب المقلد
متى تخلف الأيام مثلي لكم فتى	شديداً على البأساء غير ملهد

فالشاعر مابرح يفتخر لكننا نشعر ونستشف وراء فخره حشجة القنوط. إنّ اغلب روميته التي حنّ بها لبلاده تطلعننا على ما في نفسه من معاناة البعد الرهيب، وما لهذا البعد من إيقاد جذوة الشوق لوطنه، بعد أن عاش الذلّ بعد العز. إذ يقول^(٣٤):

نعم أنا مشتاق وعندي لوعة	ولكن مثلي لا يذاع له سر
إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى	وأذلت دمعاً من خلانقه الكبير

إنها الفاظ الشوق والحنين التي ترينا كيف أنّ كبرياء الفارس تندحر أمامها، على الرغم من أنه حاول أن لا يُطلع عليه أحداً. فبكاؤه ليلاً كي لا يُذاع له سرّ.

إنّ حياة أبي فراس في وطنه كانت سبباً لشقائه في أسره. فالشاعر نشأ أسداً يجوب البوادي والقفار، ثمّ أودع القفص فجأة، ففضى سنوات عدة في الأسر صبّاً متأماً تجري الدموع على خديّه، والجراح تنزف في قلبه. ولذا نراه يقول^(٣٥):

إنّ في الأسر لصباً	دمعه للخذ صباً
هو بالروم مقيم	وله بالشام قلب
مستمدداً لم يصادف	عوضاً عمّن يحب

إنه دائم السؤال عمّن يعوّضه وطنه ، وأهله لكنه لم يجد من يملأ ذلك الفراغ الذي هو فيه، ولا من يطفىء تلك النار المستعرة في قلبه سوى ذلك الماضي الجميل، الذي أخذ بالحنين إليه حنيناً دفع بعض الباحثين إلى أن ينعتّه بالضعف والانهييار^(٣٦).

وهكذا فإنّ الطابع العام للروميات يكاد يكون بهذا الشكل. فهي تفيض بوجع شديد. وخيبة أمل فادحة، ومحاولة شديدة للتماسك والاحتفاظ بثقله بنفسه. وهي نوع من أنواع الدفاع المشروع عن النفس^(٣٧).

أمّا القرطاجنيّ ، فكانت حياته في بلاد الغربية مكبلة بالحنين والشوق إلى وطنه، وهو لا ينفك يذكرنا بين أونة وأخرى ببلدة العيش، وسعادة النفس، واطمئنانها في موطنها، وذلكها وضنك عيشها، وهي بعيدة عنه. ولذا لم تكن حياته على وتيرة واحدة في الاغتراب، ففي شوطها الأول حاول التماسك والظهور بمظهر الحكيم، إذ أن الغربية تترك ظلاً من الضيق والكآبة، فيتوجه الإنسان إلى الله ليلتمس العزاء والمغفرة، وهذا دفعه إلى التأمل في الأحداث التي عاشها، والانتهاه إلى استنباط خلاصة رأيه ونتيجة تأملاته، وتلك الخلاصة حكمة يمكن أن تكون درساً مفيداً له ولغيره^(٣٨). ولذا فالشاعر أخذ يقدم النصائح للآخرين على الرغم من شعوره بثقل الدهر. إذ يقول^(٣٩).

أمر لي دهري وقد كان حلاً
لم يعرف الأيام عرفاني بها
فليس لي بطائل منه حلا
من زجر الطير وعاف وحزى
ما يقظات العيش إلا حلم
ولا مراني الدهر لا كالروى

إنه يتحسّس مرارة الدهر وثقله بعد أن حلا وازدان في نظره.

ويعد بكاء النفس من الأغراض الواضحة في شعر شعراء الغربية، وهو ((وسيلة فنية للتعبير عن أحوالهم وهم يعيشون ظروفاً صعبة لا يعلمون في أي لحظة ستخترمهم سيوف المنية))^(٤٠). وهذا ما شكل المرحلة الثانية من حياة شاعرنا وهو يعاني وحشة الاغتراب، إذ أخذت روحه بالذبول، حينما أحسّ بقساوة الزمن وعنته وتعذيبه، حتى كان يرى حياته شقاءً، بعد أن تبدلت أحواله فاخذ يندب حظه حد البكاء. إذ يقول^(٤١).

قد كان عيشي ناعماً ذا جدّة
وحال دهر كان لا يحول عن
دهراً فأضحى ذابلاً وذا بلى
ولاننا في حالة ولا أنى

ويستمر الشاعر بهذا النفس. إذ يقول^(٤٢).

قسمت الحاظي ودمعي عندما
تقسمت نفسي النواحي والنوى

إنّ ثقل الدهر وقساوته واليأس الذي خيم على الشاعر كلّ ذلك أفضى به إلى الاستسلام للقضاء والقدر. فقد يواجه الشاعر في حديثه ذاته ، وقد تعرّت من الكذب والادعاء، فلم يكتفم الوهن الذي تملك نفسه، ولم يستطع أن يخفي شجونه، فيدفعه ذلك كله للاستسلام^(٤٣). ولذا فالقرطاجنيّ لم يعد يغتر بالحياة بعد، وهو يصرح بذلك تصريحاً. إذ يقول^(٤٤).

لا بد أن ينتهي المرء إلى
لا تغترر بالعمر واعلم أنّ ما
ما قدر الله عليه وقضى
لم يمض من أيامه كما مضى

إنه عزاء للذات المنكسرة، ومحاولة لتماسكها.

وبعد ما تقدم نخلص إلى أنّ الشاعرين كليهما شعرا بالذلّ والهوان ، وهما في بلاد الغربية. ولذا فان كلا منهما حاول التخفيف عن أزمتيه النفسية وذلك بإيجاد معادل موضوعي يتناسب ومزايا شخصيته. فما كان من أبي فراس إلا أن يلجأ الى التباهي بفروسيته أمام قومه ، وتذكيرهم بالمواقع الكبيرة التي خاضها في سبيلهم. أملاً في حثهم على دفع فديته أولاً ، وإرضاءً لنفسه ثانياً.

أمّا القرطاجنيّ . فلم يجد أمامه إلا العودة إلى ذلك الماضي الجميل الذي من خلاله يتذكر عزّة نفسه وكرامتها ، وهي تتفياً ظلّ الأهل والأحبة. إلا أن اليأس الذي خيم عليه دفعه إلى الاستسلام.

إن ما كان ينتظر أبو فراس في وطنه ومن كان يدافع عنه، ويحث سيف الدولة على دفع فديته فضلاً عن حاجة قومه له، كل ذلك دفعه للتماسك، وعدم الانهيار، والاستسلام إذ كلما أخذه طوفان الذل إلى حافة الاستسلام توثبت عزمته من جديد مذكرة إياه بكبريائه، وانجازاته، لبلاده وهذا ما أوصله في النهاية إلى شاطئ الأمان.

الخاتمة :

- وبعد هذه الجولة في شعر الشاعرين يمكن أن نجمال النتائج الآتية :
١. أبدى كل من الشاعرين شوقه ورغبته، في إيقاف الزمن أملاً في العودة إلى وطنه، بغض النظر عن نوع الحياة التي يحيها بعيداً عنه، إذ لم يدخرا جهداً من أجل ذلك.
 ٢. صور أبي فراس عن وطنه طبعاً بطابع الحرب والفروسية، في حين أن صور الوطن عند القرطاجني غلب عليها جمال الطبيعة الساحرة ، وهذا يعود لاثراً البيئية في كل من ذاتيهما .
 ٣. بكى الشاعران وطنيهما بكاءً يستشف من ورائه مدى تعلق كل منهما بأرضه وأهله، إلا أن بكاء أبي فراس أقل حدة من بكاء القرطاجني، بسبب طابع الكبرياء في شخصيته منه في شخصية القرطاجني.
 ٤. لم يفض الذل والهوان الذي صار إليه أبو فراس إلى استسلامه، مع أننا نلمح ساعات من الضعف واليأس خيمت عليه. بينما استسلم القرطاجني إلى القدر حين ينس من رجاء العودة على الرغم من الحياة الهائنة التي عاشها في غربته. وهذا يعود إلى طابع حياة كل منهما، فحياة الترف التي اعتادها القرطاجني جعلته أقل تحملاً لهوان الغربة عن الوطن، في حين أن حياة الحرب والبدواة أعطت أبا فراس زخماً قوياً حتى صار يهون من وقع المصيبة عليه.

الهوامش:

- ١- الديوان: ٢٢٠.
- ٢- ينظر: أبو فراس الحمداني ، رحلة الحياة ومسيرة الموت مع مختارات شعرية، ٢٥.
- ٣- الديوان، ١١١.
- ٤- رسائل الجاحظ ، رسالة في الحنين إلى الأوطان ، مج ١ ، ج ٢ / ٣٨٦.
- ٥- الديوان ، ١٩١ - ١٩٢.
- ٦- ينظر ، الوطن في الشعر العربي ، ٣٤٦.
- ٧- رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة ، البيت ١٧٩.
- ٨- ينظر: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ١٨٠.
- ٩- رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة ، الأبيات ، ٢٧٣ - ٢٨٠.
- ١٠- ينظر: الحماسة في شعر أبي فراس الحمداني ، ٨٠ ، رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ١٩٩٧.
- ١١- ينظر: الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ، ٤٢.
- ١٢- الديوان ، ١٩٤.
- ١٣- ينظر : أعيان الشيعة ، ١٨ / ٣٠.
- ١٤- الديوان ، ١٩٤.
- ١٥- المصدر نفسه ، ١٠٠.
- ١٦- الاغتراب في الشعر العراقي الحديث ، مرحلة الرواد ، ٥٢.
- ١٧- الديوان ، ١٠٠.
- ١٨- المصدر نفسه ، ١٨٢.

- ١٩- الوطن في الشعر العربي ، ٣٧٧ .
- ٢٠- رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة ، البيت ١٧٨ .
- ٢١- المصدر نفسه ، البيت ، ١٨٧ .
- ٢٢- ينظر: دراسات في علم النفس الأدبي ، ٥٧ .
- ٢٣- رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة ، البيت ، ٣٠٢ .
- ٢٤- المصدر نفسه ، البيت ، ٣٧١ .
- ٢٥- ينظر: الوطن في الشعر العربي ، ٣٦٩ .
- ٢٦- المصدر نفسه ، ٢٩٧ .
- ٢٧- ينظر: المصدر نفسه ، ٣٦١ .
- ٢٨- الديوان ، ١٨٢ .
- ٢٩- المصدر نفسه ، ٦٤ .
- ٣٠- ينظر: الفنون الأدبية عند العرب ، فن الفخر وتطوره في الأدب العربي ، ١٤٢ .
- ٣١- ينظر: في الأدب العباسي ، ٤٥١ .
- ٣٢- ينظر: السجون وأثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي ، ٢٣٠ .
- ٣٣- الديوان ، ٦٦ .
- ٣٤- المصدر نفسه ، ٨٤ .
- ٣٥- المصدر نفسه ، ٤٨ .
- ٣٦- ينظر: الفنون الأدبية عند العرب ، فن الفخر وتطوره في الأدب العربي ، ١٤٨ .
- ٣٧- ينظر: محنة أبي فراس ، مقال في مجلة الثقافة العربية ، المؤسسة العامة للصحافة بالجمهورية العربية الليبية ، ١١٤ السنة (٣) ١٩٧٦ .
- ٣٨- ينظر: السجون وأثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي ، ٢١٧ - ٢١٨ .
- ٣٩- رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة ، الأبيات ، ٧٢٠ - ٧٢٢ .
- ٤٠- شعر الأسر والسجون في عصر ما قبل الإسلام ((دراسة وتحليل)) مجلة القادسية للعلوم مج ٢ ، ٣٤ ، ٢٠٠٢ ، ص ١٤٣ .
- ٤١- رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة ، البيتان ، ٥٥٥ - ٥٥٦ .
- ٤٢- المصدر نفسه ، البيت ، ٥٧١ .
- ٤٣- ينظر: السجون وأثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي ، ٢١٠ .
- ٤٤- رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة: البيتان ، ٩٨١ ، ٩٧٩ .

المصادر:

- ١- أبو فراس الحمداني ، رحلة الحياة ومسيرة الموت مع مختارات شعرية ، د. منذر حائك منشورات دار علاء الدين ، دمشق ٢٠٠٠م .
- ٢- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، د. محمد مصطفى هدارة ، ط ٢ ، دار المعارف بمصر ١٩٧٠ .
- ٣- أعيان الشيعة ، السيد محسن الأمين الحسيني العاملي ، ط ١ ، مطبعة الشريقي ، دمشق ، ٢٠٠٠م .
- ٤- الاغتراب في الشعر العراقي الحديث ، مرحلة الرواد ، د. محمد راضي جعفر ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ١٩٩٩ .
- ٥- الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ، د. ماهر حسن فهمي ، معهد البحوث والدراسات العربية ، جامعة الدول العربية ١٩٧٠ .
- ٦- دراسات في علم النفس الأدبي ، حامد عبد القادر ، المطبعة النموذجية ، القاهرة ١٩٤٩ .
- ٧- ديوان أبي فراس الحمداني (٣٢٠ - ٣٥٧هـ) عني بجمعه ونشره د. سامي الدقان ، الاختيار والتقديم والشرح أحمد عكيدي ، ط ١ ، منشورات وزارة الثقافة ، سوريا دمشق ٢٠٠٤ .

- ٨- رسائل الجاحظ ، رسالة في الحنين إلى الأوطان ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، اختيار الإمام عبد الله بن حسان ، تد عبد السلام هارون ، ط١ ، مكتبة الخانجي مصر ١٩٧٩ .
- ٩- رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة شرح أبي القاسم محمد بن احمد الغرناطي مطبعة السعادة مصر ٢٠٠٤ .
- ١٠- السجون وأثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي ، د. واضح الصمد ، ط١ ، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع ، لبنان بيروت ١٩٩٥ .
- ١١- الفنون الأدبية عند العرب، فن الفخر وتطوره في الأدب العربي ، إيليا حاوي ، ط٢ ، منشورات دار الشرق الجديد ١٩٦٠ .
- ١٢- الوطن في الشعر العربي ، د. وهيب طينوس ، مطبعة جامعة حلب سوريا ١٩٧٩ .
- ١٣- الرسائل والدوريات:
- ١٤- الحماسة في شعر أبي فراس الحمداني ، يحيى ولي فتاح ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب جامعة بغداد ١٩٩٧ .
- ١٥- شعر الأسر والسجون في عصر ما قبل الإسلام ((دراسة وتحليل)) ، د. محمد فتاح عبد الجبائي ، مجلة القادسية للعلوم التربوية ، ٣٤ ، مج٢ ، ٢٠٠٢ .
- ١٦- محنة أبي فراس ، بقلم محمد إبراهيم أبو سونه ، مجلة الثقافة العربية ، المؤسسة العامة للصحافة بالجمهورية العربية الليبية ، ١١٤ السنة (٣) ١٩٧٦ .

Abstract

A homeland

in The Poetry of Abi Firas Al – hemedani and hazim Al – Qurtajni - A comparative literary Study -

This study is about a view of the picture of a homeland and the extent of the relationship of humanbeing with his country , in addition to his home sick to it towards the poets of Arabs such as Abu Firas Al – hemedani who died in 357 H . and hazim Al – Qurtajni who died in 684 H .

The research deals with the picture of the homeland according to its belonging and the feeling of loss when you are far away from it in addition to the humility which enjoys with the stranger . this is according a comparative literary study between the two poets.